-المدرسة الإشراقيّة:

أولاً: البداية والتحوّلات

في الوقت الذي كان الفيلسوف الأندلسي "**ابن رشد**" مشتغلاً في المغرب الإسلامي في الدفاع عن المدرسة **المشّائية** التي تعرّضت جملة من قواعدها وأصولها لنقدٍ هزّ أُسسها ومبانيها من قِبَل **الغزالي** في كتابه "**تهافت الفلاسفة**"، كانت هناك في المشرق الإسلامي بذور تَكَوُّن مدرسة فلسفية أخرى وضع أُسسها **السهروردي** في كتابه الرئيس "**حكمة الإشراق**".

ثانياً: أصول هذه المدرسة: لم تكن تنطلق من الأسس نفسها التي انطلقت منها الفلسفة **المشّائية**، بل كانت تبتعد عنها ابتعاداً كبيراً. فلهذا نجد أنّ ما كان له أهمّية خاصّة في الفكر المشّائي - **وهو النظروالاستدلال** - لم يعد هو **المحوروالأساس** في هذه المدرسة الجديدة، وما كان عديم الأهمّية هناك - **وهو الشهود والمكاشفة المبنية على التصفية والتزكية** - صار هو المحور هنا.

بل يُمكن القول: إنّ ظهور المدرسة الإشراقية في تاريخ الفكر الفلسفي الإسلامي، يؤلّف انعطافة أساس في تاريخ هذا الفكر، حيث أدّى بزوغ فجر الحكمة الإشراقية على أُفق الفلسفة والعلم، إلى تغييرات أساس في المنطلقات التي كانت تنطلق منها الحكمة **المشّائية**، التي كانت لها الهيمنة التّامة على الأجواء الفكرية والفلسفية، ممّا أدّى بدوره إلى توقّف الحركة الفلسفية - ولو لأمد - وهذا هو القانون السائد في كلّ المدارس الفكرية والفلسفية التي بزغت على مرّ التاريخ الإنساني.

ولكنّ الفلسفة الإشراقية استطاعت من خلال المنطلقات الجديدة التي نادت بها، أن تُذيب بظهورها، ذلك الجمود والخمود الفكري الذي كان قائماً قبلها، وتكون منطلقاً لفلسفة جديدة قائمة على **أُسس** غير الأسس التي قامت عليها الفلسفة **المشّائية**، وهذه الطريقة استحدثها شيخ الإشراق سوف يكون لها الأثر الكبير في الجذور الفلسفية التي قامت عليها مدرسة الحكمة المتعالية لصدر المتألّهين الشيرازي.

ثالثاً:شيخ الإشراق:

يُعتبر الشيخ **شهاب الدين السهروردي شيخ الإشراق (549 - 587 هـ)**، زعيماً لهذه المدرسة في العصر الإسلاميّ. وهو ينسب في أول كتابه **"حكمة الإشراق"** امتداد هذه المدرسة لجماعة من الفلاسفة المتقدّمين اليونانيين أمثال **فيثاغورس و أفلاطون**، معتبراً أنّهم كانوا من دعاة الحكمة **الذوقيّة الإشراقيّة**، زاعماً أنّ أفلاطون هو شيخ **الإشراقيّين**. ونحن لا يهمّنا مدى صحّة هذا الزعم، وأنّه كان بصدد تأييد فلسفته هذه بانتسابها للحكماء السابقين أم لا، وما يهمّ هو أنّه أسّس مدرسةً في الأوساط الإسلاميّة، تختلف عن المدرسة المشّائيّة، عُرفت بإسم المدرسة الإشراقيّة، أو بفلسفة الإشراق.

رابعاً: سبب التسمية:

لماذا يُطلَق على هذه المدرسة اسم فلسفة الإشراق؟

الإشراق يعني انبثاق النور. ومن خلال هذه الكلمة أراد أصحاب هذه المدرسة أن يُبيّنوا المنهج الذي يعتمدون عليه، بحيث **يُميّزهم** عن المنهج **المشّائي**. يقول المحقّقون: إنّ سبب ذلك هو أنّ **العلم نورٌ يُشرق في قلب العارف**، فهم يعتقدون: **"أنّ مثل القلب مثل المرآة المجلوّة المصقولة، محاذياً للّوح المحفوظ وما عليه من العلوم والحقائق الإلهيّة، فكما لا يُمكن أن يكون شيءٌ محاذياً للمرآة المصقولة ولا يؤثّر فيها، فكذلك لا يُمكن أن يكون شيءٌ محاذياً للوح المحفوظ وهو لا يرى في المرآة القلبيّة الصافية"**. فهم يدّعون أنّهم بتطهير **القلب** من أدران الذنوب، وبصقل النفوس من أوساخ التعلّقات الدنيويّة، **تُشرق** العلوم والمعارف في قلوبهم، **فيطّلعون على حقائق الأشياء.**

خامساً: ميّزات الفلسفة الإشراقيّة:

يُميّز هذه المدرسة عن غيرها من المدارس اعتمادها في تحصيل معارفها على عدّة أمورٍ:

1- المزاوجة بين العقل والكشف:

عند **السهروردي** الطريق لدرك العلوم الإلهية والمعارف الحقيقية إنّما يكمن **بتهذيب النفس والمداومة على الأمور المقرّبة إلى عالم القدس والطهارة.** ولكن هذا ليس بمعنى ردّ النظر والفكر والاستدلال العقلي بل العكس، فإنّ شيخ الإشراق يُصرّح بأهمّية **دورالاستدلال العقلي** في المنهج الذي يتّبعه للوصول إلى الغاية المطلوبة، فلهذا يقول: "إنّه لا يُمكن فهم حقيقة الحكمة الإشراقية ما لم يكن الحكيم ماهراً **في العلوم البحثية والمناهج الاستدلالية البرهانية**". والشاهد على ذلك هو أنّه ينصح بمطالعة كتاب **"التلويحات" ثم "المشارع والمطارحات"** قبل الوقوف على كتابه الأساس الذي يُبيّن فيه أصول مذهبه الفلسفي وهو كتاب **"حكمة الإشراق"**، الذي يُعبّر عنه صدر الدين الشيرازي: "بأنّه قرّة عيون أصحاب المعارف والأذواق".

يقول في كتاب **"المطارحات":** "ومن لم يتمهّر في العلوم البحثية به، فلا سبيل له إلى كتابي الموسوم بـ **(حكمة الإشراق)**، وهذا الكتاب ينبغي أن يُقرأ قبله وبعد تحقيق المختصر الموسوم بـ **(التلويحات)**" وهذه العبارة خير دليل على أنّ الحكمة الإشراقية **لا تُخالف الفلسفة المشّائية في إعطاء العقل والاستدلال البرهاني** موقعه الخاص به. ولكن لا تكتفي **بالعقل وحده** في إدراك **الحقائق**، بل تحاول الاستعانة بهما **معاً** للوصول إلى **الكمال** المطلوب. فالعقل والكشف كلّ واحد منهما يُعين الآخر للوصول إلى الحقائق ومعرفتها.

يقول في حكمة الإشراق: "والحكماء كثيرة وهم على طبقات وهي هذه: أحدها: حكيم إلهي متوغّل في التألّه عديم البحث. ثانيها: حكيم بحّاث عديم التألّه. ثالثها: حكيم إلهي متوغّل في التألّه والبحث...إلى أن يقول: "وأجود الطلبة طالب التألّه والبحث. وكتابنا هذا لطالبي التألّه والبحث"

يقول الشيرازي - شارح حكمة الإشراق - في ذيل هذه العبارة: "إنّ **الطبقة الأولى** هم كأكثر الأنبياء والأولياء من مشايخ التصوّف من أرباب الذوق دون البحث

الحكمي. وإنّ **الطبقة الثانية** هم عكس الأولى، وهم من المتقدّمين كأكثر المشّائين من أتباع أرسطو ومن المتأخّرين كالشيخين الفارابي وأبي علي وأتباعهما. وإنّ **الطبقة الثالثة** هم أعزّ من الكبريت الأحمر ولا نعرف أحداً من المتقدّمين موصوفاً بهذه الصفة، ولا من المتأخّرين غير صاحب هذا الكتاب".

2- الذوق الفطري وصفاء الباطن:

والمراد به هو "إذا أردتَ أن تكون عالِماً إلهيّاً من دون أن تتعب وتداوم على الأمور المقرّبة من القدس، فقد حدّثتَ نفسَك بالممتنع، أو شبيه الممتنع، فإن طلبتَ واجتهدت لا تلبث زماناً طويلاً إلّا وتأتيك البارقة النورانيّة وسترتقي إلى السكينة الإلهيّة الثابتة"

فهذه المدرسة في الوقت الذي تتحرّى فيه الدليل العقليّ والاستدلال المنطقيّ والفلسفيّ، تُبتنى على كمال الطالب المعنويّ، ورياضته الروحيّة في جلاء الباطن حتّى يصفو القلب من الكدورات، فتُشرق في أعماقه المعارف. وعلى هذا فإنّ حكمة الإشراق تسعى لإيجاد الرابطة بين عالم العقل والاستدلال وعالم الإشراق، وبعبارةٍ أخرى بين الاستدلال العقليّ والشهود الباطنيّ، فهي برزخٌ بين الفلسفة المشّائيّة والكلام وبين التصوّف، فمزجت بين المنهجين ممّا جعلها مدرسةً مستقلّةً.

بل تترقّى هذه الفلسفة لتُقارن بين **المشاهدة والبرهان:** "وأمّا من حيث وجدان الدليل وتأكّد البرهان المبين، فإنّ **المشاهدة** أقوى من **الاستدلال**... وقد سُئل بعض الصوفيّة: ما الدليل على وجود **الصانع**؟ فقال: قد **أغنى الصباح عن المصباح**".

3- اعتمادها على ظواهر القرآن الكريم، والسنّة الشريفة:

ومن الأصول الأساس التي اعتمدتها المدرسة الإشراقية في الوصول إلى رؤية كونية عن **الوجود ونظامه** هو تأكيدها وحثّها على لزوم التمسّك بالكتاب والسنّة وعدم تخطّيهما وتجاوزهما. يقول السهروردي في رسالته حكمة التصوّف: "أوّل ما أُوصيك به تقوى الله عزّ وجلّ، فما خاب من آب إليه، وما تعطّل من توكّل عليه، احفظ الشريعة فإنّها سوط الله بها يسوق عباده إلى رضوانه، كلّ دعوى لم تشهد بها شواهد الكتاب والسنّة

فهي من **تفاريع العبث وشعب الرفث**، من لم يعتصم بحبل القويّ غوى، وهوى في غيابة جبّ الهوى، ألم تعلم أنّه كما قصرت قوى الخلائق عن إيجادك، قصرت عن إعطاء حقّ إرشادك، بل هو: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ قدرته أوجدتك، وكلمته أرشدتك".

ويقول أيضاً: "أوصيكم إخواني بحفظ أوامر الله ونواهيه والتوجّه إلى الله مولانا نور الأنوار - بالكلّية - وترك ما لا يعنيكم من قول أو فعل، وقطع كلّ خاطر شيطاني".

فمن النقاط الواضحة في كتابات مؤسّس هذه المدرسة، الاستفادة من الآيات القرآنية والتأمّل في مضامينها العالية واستخراج نكات لطيفة دقيقة منها، وهذا ما لم نعهده في كلمات جملة من الاتجاهات السابقة عليه. يقول السهروردي في هذا المجال: "وعليك بقراءة القرآن مع وجد وطرب وفكر لطيف، واقرأ القرآن كأنّه ما أُنزل إلّا في شأنك فقط".

وكذلك يقول في أمر الدعاء: "وكن كثير الدعاء في أمر آخرتك، فإنّ الدعاء نسبته إلى استجلاب المطالب كنسبة الفكر إلى استجلاب المطلوب العلمي، فكلٌّ معدّ لما يُناسبه".

4- بناء رؤية كونية متكاملة:

سعت هذه المدرسة لتقدّم رؤيةً كونيّةً، عن الوجود والكون والله والآخرة. ومن هنا نجدها تتعرّض لأهمّ النظريّات التي ذكرها **أفلاطون**، وتُدافع عنها بأسلوبها وطريقتها، وهي **المثُل الأفلاطونيّة** – سيأتي شرحها في مبحث المعرفة-، **والروح، والاستذكار.**

وعلى هذا تكون هذه الفلسفة قد مزجت بين العقل والشهود والقرآن الكريم والسنّة الشريفة، طبعاً على مستوى النظريّة.

سادساً: تقويم هذه المدرسة:

لقد استطاعت هذه المدرسة أن تتخلّص من المشكلة التي واجهت المدرسة **المشّائيّة**، وأوجدت لقواعدها ورؤيتها أصولاً مستقاةً من أكثر من منبعٍ واحدٍ، وحاولت أن تمزج بين هذه المباني، فتعتمد عليها جميعاً، خصوصاً أنّ مؤسّسها فيلسوفٌ مسلمٌ مطلّعٌ على الكتاب الكريم والسنّة النبويّة، وقد اطلع على الفلسفات السابقة عليه، وهو كما اشتهر عنه نابغة عصره، وآثاره ومدرسته دليلٌ على ذلك. لكن **مشكلة** هذه المدرسة أنّها لم تتمكّن من تطبيق **النظريّة على الو اقع**. ولم تستطع هذه المدرسة أن تُحقّق النجاح العمليّ الذي حقّقته على مستوى **التنظير**، وإنّما كان حليف **مدرسة الحكمة المتعالية.**

سابعاً: أهمّ كتب السهروردي: لشيخ الإشراق مصنّفات كثيرة، جُمعت مؤخّراً تحت عنوان مجموعة مصنّفات شيخ الإشراق، مؤلّفة من خمسة مجلّدات، تحوي كلّ مؤلّفاته ورسائله وكتبه العربية والفارسيّة، وأشهرها:

1- حكمة الإشراق.

2- المطارحات.

3- التلويحات.

4- اللمحات.

5- الألواح العماديّة.

6- هياكل النور.

7- المقاومات.

ثامناً:المفاهيم الرئيسة:

1- أصول هذه المدرسة لم تكن تنطلق من الأسس نفسها التي انطلقت منها الفلسفة المشّائية، بل كانت تبتعد عنها ابتعاداً كبيراً.

2- ما كان له أهمّية خاصة في الفكر المشّائي . وهو النظر والاستدلال . لم يعد هو المحور والأساس في المدرسة الإشرافية، وما كان عديم الأهمّية في المدرسة المشّائية وهو الشهود والمكاشفة المبنية على التصفية والتزكية . صار هو المحور هنا.

3- الفلسفة الإشراقية استطاعت من خلال المنطلقات الجديدة التي نادت بها، أن تُذيب بظهورها، الجمود والخمود الفكري الذي كان قائماً قبلها، وتكون منطلقاً لفسلفة جديدة قائمة على أُسس غير الأسس التي قامت عليها الفلسفة المشّائية.

4- يُعتبر الشيخ شهاب الدين السهروردي زعيم المدرسة الإشراقية في العصر الإسلاميّ.

5- تتميّز هذه المدرسة عن غيرها من المدارس اعتمادها في تحصيل معارفها على عدّة أمورٍ:
أ- العقل والاستدلال المنطقيّ والفلسفيّ.
ب- الذوق الفطريّ وصفاء الباطن.
ج- اعتمادها على ظواهر القرآن الكريم، والسنّة الشريفة.
د- سعت هذه المدرسة لتُقدّم رؤيةً كونيّةً، عن الوجود والكون والله والآخرة.

6- ميزة الفلسفة الإشراقية أنّها قد مزجت بين العقل والشهود والقرآن الكريم والسنّة الشريفة، على مستوى النظريّة.

7- استطاعت هذه المدرسة أن تتخلّص من المشكلة التي واجهت المدرسة المشّائيّة، وأوجدت لقواعدها ورؤيتها أصولاً مستنقاةً من أكثر من منبعٍ واحدٍ، وحاولت أن تمزج بين هذه المباني، فتعتمد عليها جميعاً.

8- المدرسة الإشراقية لمن تتمكّن من أن تطبّق النظرية على الواقع، فلم تستطع هذه المدرسة أن تُحقّق النجاح العمليّ الذي حقّقته على مستوى التنظير.